الغناء لا يطعم خبزاً وأجورنا تبقى محدودة مهما ارتفعت

عماد رمال لـ«الوطن»: ذائقة الجمهور مستمرة بالانحدار وما يُغنى لا علاقة له بالأغنية الشعبية

وائل العدس

صوت دافئ وقوي، يتوسد عرش قلبك مع أول تنهيدة تتراقص فيها الحبال الصوتية بعفوية، عذوبة صوته تجعلك تبحر نحو الأفق البعيد بحجم امتداد السماء.. وينعش ذاكرتك العتيقة نحو حياة خالية من الضجيج.

عماد رمال المطرب السوري، قيثارة الإحساس الشرقي ذات النبع الرقراق والصوت الشجي واللحن الذي يُعيدك إلى سنين خلت.

يمتلك في رصيده الغنائي ست أغنيات خاصة هي «يا ضحكتي» و«أكبر عرس» و«يقبروني هالعيون» و«مستنيها من زمان» و«بدي قلك» و«علي» التي أطلقها مؤخراً لابنه المولود حديثاً، إضافة إلى عشرات الحفلات في شتى المهرجانات والمناسبات والمطاعم والفنادق.

هو عضو في نقابة الفنانين، شارك في عمر صغير كمغني صولو ومع الكورال في فرقة شباب سورية بقيادة المايسترو جوان قرجولي وبعدها مع فرقة إيبلا وفرقة نقابة الفنانين مع الموسيقي باسل صالح ومع فرقة معهد صلحي الوادي مع الموسيقي اندريه معلولي، وكانت له عدة مشاركات خارجية في لبنان ودبي، وحالياً هو مغن في الفرقة الوطنية للموسيقا العربية بقيادة المايسترو عدنان فتح الله.

• حدثنا عن بداياتك الفنية؟

بدأت بالغناء بعمر ١٤ عاماً عندما كنت في الصف الثامن الإعدادي، وبعدها بسنوات قليلة احترفت الغناء، وقد نشأت في عائلة تربوية فنية تقدّر الثقافة وتحب الموسيقا الراقية، وهذا ما شجعني على عشق الفن والتعمق فيه لأقصى درجاته.

• باعتبارك لم تدرس في المعهد العالي للموسيقا، هل تشعر أن الفنانين الأكاديميين يتفوقون عليك؟

أبداً، فأنا على اطلاع دائم بالموسيقا والمقامات، وتعلمت ما تعلموه، ولازمت الموسيقار عدنان فتح الله لفترة طويلة، وعملت مع فرقة عدنان أبو الشامات للموشحات، وكنتُ عضواً بفرقة أمية، وتأثرت بوالدي عازف الإيقاع. وعلى العكس تماماً، طلاب المعهد تنقصهم الخبرة التي أمتلكها، وتنحصر خبرات بعضهم في الإطار الأكاديمي فقط، في وقت غنيت فيه على أكثر من مسرح ولكثير من الفنانين.

لم أسرق فرصة أحد ولم أتعدَ على المهنة

• لكن بعض طلاب المعهد يتهمون فنانين بأنهم تعدوا على هذه المهنة؟

ربما هم أحق بدار الأوبرا، لكن الفنان الناجح هو من يستمر ويثبت موهبته، والنجاح لا يتحقق بالصوت والشكل فقط، بل بالعقل والذكاء وكيفية إدارة الأمور وقراءة الأجواء الفنية بشكل ذكي ومجد.

وأؤكد أنني لم أسرق فرصة أحد ولم أتعدَ على المهنة، والدليل أنني خلال العام الماضي قدّمت حفلاً في دار الأوبرا بعدما قبلتني الإدارة لصوتي وبعدما فرضت نفسي على الساحة الفنية.

• هل من صعوبات واجهتك؟

واجهني الكثير من الصعوبات، ولو لم أكن على قدر المسؤولية لتوقفت مسيرتي منذ زمن، لأننا نعيش في زمان انعدام الأخلاق والضمائر وسوء المعاملة، لذلك تراني أدرس خطواتي وأضع شروطي الخاصة قبل الخوض في أي عمل.

أولى الصعوبات كانت ومازالت مادية، لدرجة أن ما أجنيه من الحفلات، أدفعه على إنجاز أغنياتي الخاصة التي تكلفني الكثير، وربما لا تحقق المأمول في النهاية.

ولا ننسى أن متعهدي الحفلات في سورية يفضّلون الغريب على ابن البلد، رغم أننا كسوريين الأولى والأجدر والأفضل.

• لديك ملاحظات على الوسط الفني؟

نعم، نحن كفنانين سوريين لا نؤمن بقدراتنا، ولا يحب بعضنا بعضنا الآخر، بل نسعى إلى إفشال الآخرين لأن مزمار الحي لا يطرب، ولن نتقدم قيد أنملة ما لم نتعامل بمحبة واحترام.

• تغني بشكل دوري في أحد المطاعم، فهل تواجه انتقادات؟

أتشرف بذلك، وليس عندي أي مشكلة، بل على العكس، الغناء في المطاعم يقربني من الناس ويمنحني خبرة التعامل مع الجمهور.

وأنا بكل الأحوال أغني في مطاعم راقية ويرتادها أشخاص محترمون ويقدرون قيمة الفن.

• هل الغناء يطعم خبزاً؟

لا أبداً، أجورنا لا تتناسب مع الغلاء وتبقى محدودة مهما ارتفعت، وكل ما تقدمنا في العمر ترتفع أجورنا ولكن بشكل زهيد، لكن ما يحزن أن أجور الفنانين اللبنانيين في سورية تفوق أجورنا عشرات الأضعاف، عدا الدعم المعنوي والتسويقي الذي لا نناله.

• تميل في أغانيك إلى اللون الرومانسي، فهل أنت رومانسي؟

لا أبداً، ذائقتي الخاصة غير رومانسية، لكنني أميل بالفعل إلى هذا النوع من الأغنيات التي تحمل معها إحساساً عالياً ينبع من القلب، وأنا أغني كل الألوان الغنائية لكنني ألمع في هذا اللون بالذات، وأسعى إلى الكلمات والألحان المملوءان بالإحساس.

• لماذا لم تطلق ألبومك الخاص حتى الآن؟

نعيش حالياً عصر الأغنية المنفردة، وكثير من الفنانين يطلقون «ميني ألبوم»، ولكني كفنان سوري مضطر أن أتأخر في خطواتي لغياب شركات الإنتاج، والأغنية الواحدة باتت تكلف نحو ١٥ ألف دولار، فكيف سأنتج ألبوماً وحدي؟.

أشعر أنني أفضل من غيري، لكن ما قدمته لم يحقق سوى الشيء البسيط من طموحي الذي يفوق الحدود، وللعلم فإنني خاسر مادياً مئة بالمئة فيما أطلقته من أغان خاصة، لكني أفكر بجمع الأغنيات وطرحها على شكل ألبوم في وقت لاحق.

وحلمي لا يتوقف عند الغناء في أفخم المطاعم فقط، بل أعيش لأحقق مشروع عمري، وأقوم بخطوات ثابتة لكنها بطيئة نوعاً ما بسبب الظروف المادية، وكل الفنانين النجوم بدؤوا صغاراً، وهو أمر طبيعي ومنطقي.

وأؤكد أن وجود شركات إنتاج فنية معنية بالأغنية السورية يشكل دعماً ضرورياً وكبيراً للفنان وللأغنية في سورية ويطور الموسيقا ويفتح آفاقاً جديدة.

• لماذا لم تشارك في برامج المواهب؟

شاركت في أحد البرامج عام ٢٠١٣ ونال صوتي إعجاب الجميع، لكن لديّ خطوط حمراء تتعلق بوطني ورئيسي ولا أسمح لأحد المساس بهما بعدما حاولوا التدخل بأموري ومواقفي الشخصية، فقررت الانسحاب لأن كرامتي وكرامة بلدي أهم من كل شيء.

وللعلم فإن إدارة هذه البرامج لا يهمها الصوت، بقدر ما يهمها جني الأموال من خلال الاستعراض واختلاق مواقف تلفت أنظار الناس.

ومشاركة المواهب في هذه البرامج لا تخلو من التسييس في ظل غياب الفرص المحلية.

• ما رأيك بالأصوات التي تخرجها هذه البرامج؟

للأمانة، هناك أصوات أجمل بكثير من أصوات أعضاء لجنة التحكيم، وفي الوقت نفسه هناك أصوات عادية جداً لكنها تصل إلى مراحل متقدمة، ما يعني أن الصوت هو آخر المعايير التي تمنح المشترك الفوز.

• ما رأيك بالأغنية الشعبية السورية الدارجة حالياً؟

لا علاقة لما يغنى بالأغنية الشعبية، ولا يمثلها من قريب ولا بعيد، فالأغنية الشعبية هي أغاني فؤاد غازي وفهد بلان وصباح فخري.

جميعنا يستمتع بالأغنيات الدراجة ونرقص وندبك على ألحانها، لكن يجب ألا تصدّر على أنها تراث شعبي، علماً أننا نمتلك الكثير من الأصوات الجميلة مثل الفنان وفيق حبيب الذي أعشق صوته وأشعر أنه مظلوم في زحمة هذه الأصوات.

وحالياً معظم الأصوات الحالية متشابهة، ولتتميز عليك تقديم أعمال متفردة لا تشبه الآخرين، لكذلك غير موجود.

• هناك مشكلة بذائقة الجمهور؟

طبعاً، وهذه الذائقة مستمرة بالانحدار مع أنني أتمنى أن تتوقف عند هذا الحد، وأحزن على الجيل الجديد الذي تربى على أغنية «جنوا نطوا» مثلاً.

• من عرابك في عالم الغناء؟

أول من دعمني موسيقياً ومعنوياً هو الموسيقار عدنان فتح الله، على حين قربني الأستاذ جوان قرجولي من الموسيقا ودفعني لحبها، أما أبي وباعتباره عازف إيقاع فوقف إلى جانبي بكل تأكيد ودعمني.

• هل أيدت عائلتك دخولك هذا المجال؟

في إحدى المرات قمت بدعوتهم لحضور إحدى حفلاتي في مسرح معرض دمشق الدولي القديم، ففوجئوا بي وبصوتي ومن بعدها كانوا أكبر الداعمين لي.

• تزوجت منذ أكثر من عام، ورزقت مؤخراً ولداً، هل أثر زواجك في مسيرتك الفنية؟

الزواج أخذ من وقتي الكثير، لكنه أثر فيّ إيجابياً، لأن زوجتي داعمة ومتفهمة وتوفر لي كل ظروف النجاح والراحة.

• برأيك من مطرب سورية الأول ومطربة سورية الأولى؟

المطرب الأول جورج وسوف بكل تأكيد، وسيبقى كذلك ولو جاء بعده مئة فنان، وأشيد بتجربة ناصيف زيتون، أما المطربة الأولى فهي ميادة الحناوي، وتتميز الساحة الفنية السورية بالكثير من الأصوات النسائية الجميلة مثل رويدا عطية وشهد برمدا وسارة فرح.

• أخيراً، ما سبب قلة صداقاتك في الوسط الفني؟

هكذا أرتاح، أنا اجتماعي جداً وعندي صداقات قوية خارج الوسط، لكن هذا الوسط مملوء بالمشكلات والثرثرات، وتربيتي لا تخولني استيعابها وتحملها.

وعندي عادة تتمثل بعدم القدرة على التأقلم مع أي شيء لا يريحني، فإذا شعرتُ بضيق من شخص ما، أتوقف عن التعامل معه، وإن كان التواصل معه يخدم مصلحتي.

مفهوم التراث الشعبي يضم ما يصدر عن جميع أفراد الشعب من عادات وتقاليد ومواقف

منير كيال

لا بد من التوقّف لحظات، لتوضيح ما أعنيه بالتراث الشعبيّ، وخاصة بعد أن أصبح هذا التراث بمنزلة الميراث الشعبي أو القومي للمجتمع، بكل ما في ذلك من مضامين روحية وفكرية وعملية لكون هذا التراث ترجماناً لأحوال المجتمع على مرّ العصور. أكان هذا التراث ماديّا أو لا غير مادي، يبدو ذلك بالحكاية الشعبية والأحجية، والمثل والحرفة، بل أيضاً الأغنية الشعبية على تعددها وتنوعها بجميع مناسباتها إلى آخر ما هنالك من روافد لهذا التراث.

وإن كانت نظرة المؤرخين ، فيما مضى وحتى عصر النهضة الأوروبية تقوم على اقتصار تراث الشعب على الأوابد التاريخية، والآثار الشاخصة بالمتاحف وعلى ما قدمه الدارسون من كتاب وشعراء وبالتالي ما قام به القادة من معارك وفتوحات، وإذا كان الأمر كذلك، فإن النظرة المتفحصة للتراث الشعبي، قد تتبدل في هذه الأيام، حيث أصبح مفهوم التراث الشعبي يضم ما يصدر عن جميع أفراد الشعب من عادات وتقاليد وتعامل وموقف، إزاء ما يواجههم من صروف الحياة، خيرا كان ذلك، أم غير ذلك.

وهذا الوضع جعل نظرة الباحثين بالتراث تتبدل بتبدل ما يصدر عن المشبب من فن أصيل يتوسل إليه بالكلمة واللحن والتشكيل، فضلاً عن عناصر الثقافة الشعبية الأخرى التي تزخر بها حياة الشعب أو المجتمع بكل ما بذلك من غنى مادي وروحي وميثولوجي، لما لهذا التراث من مقدرة على حمل معتقد الشعب وعاداته وتقاليده وصناعاته التقليدية وأدبه الشعبي، فكان أي تبدل بحياة الشعب ينعكس على حياته ليشكل جانباً من تعاملهم وتعايشهم.

ونذكر على سبيل المثال، ما كان من تقاليد الخطبة والزواج وما يندرج بذلك من الليالي الملاح، إلى ليلة العرس والعراضة الخاصة بذلك.. وصولاً إلى تقاليد الحمل والولادة، وما يتصل بذلك من أغاني المهد والطفولة.. إلى آخر ما هنالك من أمور توافق عليها الناس، ولا يجوز لأحد الخروج عليها أو تجاوزها.

ويدخل بهذا كله، ما كان بمسميات هذه المدينة من أحياء وأزقّة وحارات، وما كان لأهل هذه المدينة من عطاء بالمنشآت الخيرية والعملية أكان ذلك لخدمة مدينة دمشق أم الوافدين إليها من المدن والأرياف من الأقطار العربية الأخرى، فضلاً على ما كان لذلك من دورٍ بحياة أهل دمشق.

وإذا تذكرنا ما عشناه، ومن عاصرناه بالنصف الأول من القرن العشرين، لكانت ذكريات الحياة بالكتاتيب ومع مسحر رمضان (أبو طبلة) وبالتالي عربات الترام (الترامواي) من الصور التي تجعل تراثنا الشعبي حكاية تاريخ بلادنا، بما بذلك من متعة، حتى إن الواحد منا يكاد يقول: أنا ذلك التراث المشرق الذي يعانق الشهب، أينما كان وكيفما كان، لما يتوّج ذلك من أواصر المحبة والإيثار، التي طبعت الإنسان بطابعه وتوجته بفخارها حتى لكأنها الدم الذي يعروقه.

وبالطبع، فقد كان لدور دمشق طابعها بما استخدم بها من مواد بناء وبما هي عليه من توزيع لأقسام وغرف، ومن كان يقيم بها من أناس أكان ذلك الحماية، أم السلايف (زوجات الأخوة)، وما كان بين بنت الأحمى (وهي أخت الزوج) والكنّة والسلفة والضرة، بالأسرة التقليدية.. إلى آخر ما هنالك بالبيت والدخلّة (وهي الحارة الضيقة) والحارة العادية والزقاق والحي من أناس تقوم الحياة بينهم على المحبة والإيثار حيناً وعلى حب الذات وإنكار الآخر، مما يجب عليه الحال بين الحماية وأفراد الأسرة الآخرين، بأحياء دمشق التقليدية.

وبهذا الإطار، فإن بالإمكان إطلاق اسم الحارة على عدد من البيوت المتلاصقة المتراكبة، حيث يمكن أن تدخل غرفة من بيت ببيت مجاور، كما قد تركب غرفة جانبا من الطريق فتغطيه، فيطلق على ذلك الجانب من الطريق اسم تحت الصيبات. وإذا كانت الحارة توصل إلى زقاق فإنهم يطلقون عليها اسم زابوقة، كما يطلقون على الحارة التي لا تتسع لمرور شخصين متلازمين اسم زاروب.

وإذا كان من سكان الحارة، رجل أو امرأة دور إيجابيّ بالحارة، فقد يطلق اسم تلك الحارة على أي منهم رجلاً كان أم امرأة، ومن ذلك دخلة أم نعيم الداية، وحارة بيت الحمصي، بمحلة القراونة من حي الشاغور، وقد يطلق على الحارة اسم سمة خاصة بها كحارة الدبّة بزقاق الحكر بالشاغور، وحارة ستي نفيسة عند مدخل باب الحديد مقابل جامع الباشورة بحي الشاغور أيضاً.

أما الزقاق، فهو ما كان أكثر عرضاً أو اتساعاً من الحارة وهو يشمل عدداً من الحارات المتصلة كزقاق الحكر وزقاق الشيخ بالحي نفسه وحارة الشالة (الشالق) إلى الغرب من بداية نزلة جورة الحدباء بحي سوق ساروجة. ولعل من الطبيعي الإشارة إلى أن ما أوردناه بهذا البحث ينطبق على الأحياء التقليدية القديمة من مدينة دمشق، ودون الأحياء الأحدث عمراناً كحي المالكي وأبو رمّانة أو حي القصور.

جبرا ابراهيم جبرا
رحلة العمر من بيت لحم إلى بغداد

د. رحيم هادي الشمخي

لم تظلم الجغرافيا كاتباً كما ظلمت (جبرا ابراهيم جبرا) فنكبة فلسطين عام ١٩٤٨ اقتلعته من بيت لحم التي ولد فيها، ومن القدس التي كان يقيم فيها ويعلّم عشية النكبة، وقذفت به إلى بلاد الله الواسعة.

وصل في البداية إلى دمشق في محاولة لإيجاد فرصة عمل للإقامة فيها، وبالمصادفة عرف، بعد وصوله إليها بوقت قليل، بوجود بعثة عراقية قدمت لانتقاء أساتذة للتدريس في بعض الكليات العراقية، كان يرأسها الدكتور عبد العزيز الدوري، وخلال وقت قصير بعد لقائه مع الدوري تم التعاقد معه، وسافر إلى بغداد، قد يكون دار في خلد هذا المثقف الفلسطيني النابه الذي كان يحمل شهادة الماجستير في الأدب والنقد من جامعة كيمبردج العودة إلى فلسطين، لكنه أقام في بغداد كل حياته، وتزوج امرأة عراقية كانت زميلته في التدريس في الجامعة اسمها (ليعة العسكري) ورزق منها بولدين، ومع ممارسته التدريس في الجامعة في بغداد، بدأ بكتابة الشعر والقصة والرواية والنقد والبحوث، ولاسيما في الفن التشكيلي على الخصوص، كما ترجم عدداً من الكتب عن اللغة الإنكليزية التي كان يجيدها، وفي بغداد أسهم إسهاماً فاعلاً في الحياة الأدبية والشعرية والثقافية على الخصوص، وفيها أسهم – وهنا الأمر المهم– في إيجاد بيئة علمية وتنويرية متطورة متصلة أوثق اتصال ببؤر الحضارة في العالم الحديث.

ومع أن جبرا ابراهيم جبرا أقام طوال هذه الفترة الطويلة في العراق، واستحصل على الجنسية العراقية، وبنى له بيتاً في حي المنصور في بغداد، وهو من أحياء بغداد الراقية، إلا أنه ظل ينظر دائماً إلى نفسه كما كان ينظر إليه الآخرون على أنه مواطن أو مهاجر فلسطيني، صحيح أنه أحب العراق وشعبه، وأحبه العراقيون، إلا أنه ظل غريباً غربة روحية كاملة أو شبه كاملة في العراق، لكونه فلسطينياً عربياً، قدم للأجيال العراقية الشابة، سواء في المدارس والجامعات، أو في الحقل الثقافي خدمات لا يمكن لأحد أن يجحدها، وقد وجد في العراق من أخذ على بعض المسؤولين فيه مراعاة جبرا أو تدليله أو عنايتهم به عناية خاصة، ولاشكّ في أن استعانته بالموسيقا الكلاسيكية، بيتهوفن، وباخ، وموزارت، وتشايكوفسكي وسواهم من عمالقة الموسيقا العالمية

لم يغادره إحساس الغربة الروحية والجسدية طول حياته

أمنت له الكثير من التوازن والصحة النفسية، ولقد كتب عنه الدكتور عبد الواحد لؤلؤة وهو أحد تلامذته قائلاً: «إن الموسيقا الكلاسيكية كانت زاده اليومي يعيش معها طوال ساعات النهار والليل (الغراموفون) في زاوية الغرفة أو الصالون، ينوء بست أسطوانات طويلة الأمد تتساقط فوق بعضها كل نصف ساعة، وكان صوت الموسيقا يعلو على صوت رنين الهاتف الذي كان يدق في بيته ولا يسمعه، لأن صوت الموسيقا الغربية كان هو الصوت الطاغي، ولم يكن صوت جرس منزله إذا قُرع أكثر تأثيراً أو نفوذاً من صوت الهاتف».

وأخيراً فقد أمنت الموسيقا لجبرا ابراهيم جبرا، هذه الراحة النفسية التي نتحدث عنها، فالموسيقا والفن التشكيلي والكتب الأجنبية ساعدته على ملأ فراغه اليومي، ورحم الله الشاعر القديم حين قال: «قد يلطف الله بالبلوى وإن عظمت»، ومن عرف جبرا، كيف عاش في بغداد، ولاسيما في السنوات الأخيرة التي سبقت وفاته، يعرف كم كانت قدرة جبرا قوية على التمركز في الذات، وكذلك على الصبر والتحمل، ففي منزله في بغداد كان يقرأ ويكتب ويدخن السيجارة، ويستمع إلى الموسيقا الأجنبية.